العمارة العسكريَّة في مدينة الحِلَّة
خلال القرن العاشر الهجريّ/السادس عشر الميلاديّ
في المصوَّرات الإسلاميَّة

أ.م.د. حيدر فرحان حسين الصبيحاويّ
جامعة بغداد/كليَّة الآداب

Military Architecture in the City of Hilla During the Tenth Century A.H/Sixteenth Century A.D in Islamic Photographs

Asst. Prof. Dr. Haider Farhan Hussein Al Subaihawi
University of Baghdad/College of Arts

الخلاصة

أرض بابل، أو مدينة الحِلَّة اسمان لمدينة واحدة، نمت على أرضها أولى الحضارات وأشهرها، إذ تمتدُّ حاليًّا بين دائرتي عرض (٧ , ٣٢-٨ , ٣٣)، وبين خطَّي طول (٤٢ , ٤٣-٥٠ , ٤٥) شرقًا، تحدُّها محافظة واسط من الشرق، ومحافظتا كربلاء المقدَّسة والأنبار من الغرب، وبغداد من الشمال، أمَّا جهة الجنوب فمحافظتا النجف الأشرف والقادسيَّة.

أمَّا الحِلَّة فهي حِلَّة بني مزيد، التي لا تبعد سوى بضعة أميال جنوبي أطلال مدينة بابل، ومن المناسب ذكره هنا أنَّ مؤسِّس الإمارة المزيديَّة هو الأمير دبيس بن مزيد الأسديّ أحد القادة الكبار الذين كانوا يتمتَّعون باحترامٍ كبيرٍ لدى عامَّة العراقيِّين، وقد توسَّع نفوذها حتَّى شمل مناطق شاسعة من سواحل الخليج العربيّ، كما خضع إلى سيطرتها العديد من مدن غربيِّ العراق كمدينة عنَّة وتكريت.

لقد صوَّر لنا المطراقيّ عمائر متنوِعة من مدينة الحِلَّة، غلب عليها الطابع العسكريّ والإداريّ والخدميّ والدينيّ، كالأسوار والقلاع والجسر والمساجد والمراقد والمدارس، وسنسلِّط الضوء في هذا البحث على العمارة العسكريَّة وتحصينات المدينة خلال القرن العاشر الهجريّ.

الكلمات المفتاحية: الحِلَّة، الإمارة المزيديَّة، قلعة بابل، قلعة باب السلطان.

Abstract

The land of Babylon, or the city of Hilla, are two names of one city, on whose land the first and most famous civilizations grew. Which was mentioned in the Holy Quran. It currently extends between latitudes (32.7-33.8) and longitudes (43.42-45.50) to the east, bordered by Wasit Governorate to the east, the holy Karbala and Anbar governorates to the west, and Baghdad to the north, to the south the two governorates of Al-Najaf Al-Ashraf and Al-Qadisiyah.

As for Hilla, it is Hillat Banu Mazyad, which is only a few miles south of the ruins of the city of Babylon. It is appropriate to mention here that the founder of the Mazyadi emirate, Prince Dubays bin Mazyad Al-Asadi, was one of the great leaders who enjoyed great respect among the common Iraqis, and its influence expanded to include areas A vast area of the coasts of the Arabian Gulf, and many cities in western Iraq, such as Anah and Tikrit, were under its control.

Al-Matraqi depicted for us various buildings in the city of

Hilla that were dominated by a military, administrative, service and religious character, such as walls, castles, bridges, mosques, shrines and schools. In this research, we will shed light on the military architecture and fortifications of the city during the tenth century A.H.

Keywords: Hilla, Mazyadi emirate, Babylon castle, Bab Al-Sultan castle

العمارة العسكريَّة في مدينة الحِلَّة خلال القرن العاشر الهجريّ/ السادس عشر الميلاديّ في المصوَّرات الإسلاميَّة

أرض بابل، أو مدينة الحِلَّة اسمان لمدينة واحدة، نمت على أرضها أولى الحضارات وأشهرها، إذ تمتدُّ حاليًّا بين دائرتي عرض (٧ , ٣٢-٨ , ٣٣)، وبين خطَّي طول (٤٢ , ٤٣-٥٠ , ٤٥) شرقًا، تحدُّها محافظة واسط من الشرق، ومحافظتا كربلاء المقدَّسة والأنبار من الغرب، وبغداد من الشمال، أمَّا جهة الجنوب فمحافظتا النجف الأشرف والقادسيَّة.

جاء ذِكر بابل في القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْۚ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾[1].

ويُقال إنَّ أوَّل من سكنها نبيّ الله نوح عليه السلام، وهو أوَّل من عمَّرها، وكان قد نزلها عقب الطوفان، فأقاموا فيها، وملَّكوا عليهم ملوكًا، وابتنوا بها المدائن، واتَّصلت مساكنهم بدجلة والفرات[2]. وكانت تسمَّى باللغة السومريَّة

(١) سورة البقرة، آية: ١٠٢.

(٢) الحمويّ، ياقوت بن عبد الله الروميّ (ت ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م)، معجم البلدان، بيروت، ١٩٩٦،=

(Ka-Dingir-ra) وتعني باب الإله[١]، وعُرِفت باللغة الساميَّة أو البابليَّة (Bab-ilu) بمعنى باب الإله أيضًا[٢].

أمَّا الحِلَّة، فهي حِلَّة بني مزيد، والتي لا تبعد سوى بضعة أميال جنوبي أطلال مدينة بابل[٣]، ومن المناسب ذكره هنا أنَّ مؤسِّس الإمارة المزيديَّة هو الأمير دبيس بن مزيد الأسديّ، أحد القادة الكبار الذين كانوا يتمتَّعون باحترامٍ كبيرٍ لدى عامَّة العراقيِّين، وقد توسع نفوذها حتَّى شمل مناطق شاسعة من سواحل الخليج العربيّ، كما خضع إلى سيطرتها العديد من مدن غربي العراق كمدينة عنَّة وتكريت[٤].

تعني الحِلَّة حسب تفسير الرازي: «وحِلَّة: أي نزول، وفيهم كثرة، والحِلَّة أيضًا مصدر قولك حلَّ الهدى»[٥]، ويضيف الفيروز آباديّ بقوله:«وحلَّة الشيء، ويكسر: جهته وقصده، وبالكسر: القوم النزول، وجماعة بيوت الناس، أو مئة بيت، والمجلس»[٦]، بينما يذهب الحمويّ إلى القول بأنَّ الحِلَّة: «اسم أُطلق على شجرة شائكة أصغر من العوسج»[٧].

لقد اتَّفق المؤرِّخون القدماء والمحدثون بأنَّ مدينة الحِلَّة حاضرة المزيديِّين قد مُصِّرت في نهاية القرن الرابع الهجريّ/ العاشر الميلاديّ، فيعتقد ابن الجوزيّ بأنَّ مدينة

=مج١، ص ٢٤٧.

(١) الجنابيّ، قيس حاتم، تاريخ الشرق الأدنى القديم، ط٣، عمان، ٢٠١٢، ص١٣٦.

(٢) باقر، طه، بابل وبورسيبا، ط١، بغداد، ١٩٥٩، ص٢.

(٣) بابان، جمال، أصول أسماء المدن والمواقع العراقيَّة، ط٢، بغداد، ١٩٨٦، ج١، ص٩٧.

(٤) زميزم، سعيد رشيد، دول الشيعة عبر التاريخ، ط١، كربلاء المقدَّسة، ٢٠٠٨، ص٢١٧.

(٥) الرازي، محمَّد بن أبي بكر بن عبد القادر، مختار الصِّحاح، بيروت، ١٩٧٩، ص١٥١.

(٦) الفيروز آباديّ، مجد الدين محمَّد بن يعقوب (ت ٨١٧هـ/ ١٤٣٩م)، القاموس المحيط، إعداد وتقديم: محمَّد عبد الرحمن المرعشليّ، ط٢، بيروت، ٢٠٠٣، ص٩٠٧.

(٧) الحمويّ، معجم البلدان، مج٢، ص١٧٦.

الحِلَّة قد أُسِّست من الأمير صدقة بن منصور الأسديّ في ذلك التاريخ[١]، ويذهب الذهبيّ إلى ذات الاعتقاد، ويرجِّح بأنَّ مؤسِّسها الأمير صدقة بن منصور الأسديّ[٢]، ويعتقد أحد الباحثين المحدثين أنَّ المزيديِّين اتَّخذوا الحِلَّة عاصمة لهم بعد تمصيرهم لها سنة (٤٩٥هـ/ ١١٠١م) من قِبل الأمير صدقة بن منصور بن دبيس بن عليّ بن مزيد الأسديّ[٣].

ورغم اتِّفاق المؤرِّخين على تاريخ تأسيس المدينة، إلَّا أنَّهم اختلفوا في تحديد موضعها، فيطالعنا الحمويّ بقوله: «ونزلها سيف الدولة صدقة بن منصور... وكانت منازل آبائه الدور من النيل، فلَّما قوي أمره واشتدَّ أزره وكثرت أمواله... انتقل إلى الجامعين موضع في غربيِّ الفرات؛ ليبعد عن الطالب، وذلك في محرَّم سنة ٤٩٥هـ... فنزل بها بأهله وعساكره، وبنى بها المساكن الجليلة والدور الفاخرة، وتأنَّق أصحابه في مثل ذلك، فصارت أفخر بلاد العراق وأحسنها مدَّة حياة سيف الدولة»[٤].

وسار على ذات الرأي باحثون آخرون اقتبسوا ما ذكره الحمويّ، إذ يذكر أحدهم بأنَّ الأمير صدقة قد اختار موضع الجامعين التي تقع على الضفة اليسرى لنهر الفرات؛ ليكون مقرًّا لإمارته[٥]، وقد تبنَّى الرأي نفسه باحثان آخران[٦]، بينما تعتقد

(١) ابن الجوزيّ، عبد الرحمن بن عليّ بن محمَّد بن عليّ (ت ٥٩٧هـ)، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق: محمَّد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، بيروت، د.ت، ج٩، ص١٠٩.
(٢) الذهبيّ، شمس الدين محمَّد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ/ ١٣٧٠م)، سِير إعلام النبلاء، تحقيق: محب الدين أبو سعيد عمر العمريّ، ط١، بيروت، ١٩٩٧، ج١٤، ص٢٨٣.
(٣) الحدَّاد، سعد، مراقد الحِلَّة الفيحاء، ط٢، النجف الأشرف، ٢٠١٢، ج١، ص٢١.
(٤) الحمويّ، معجم البلدان، مج٢، ص١٧٦.
(٥) محمَّد، صباح محمود، مدينة الحِلَّة الكبرى: وظائفها وعلاقاتها الإقليمية، ط١، بغداد، ١٩٧٤، ص٣٣.
(٦) ونَّاس، ايمان عبيد، الصلات الثقافية بين الحِلَّة ومدن الشرق الإسلاميّ من خلال الرحلات=

دائـرة المعـارف الإسـلاميَّة أنَّ الجامعين بالجانب الشرقـيّ مقابل الحِلَّـة، وكانت مدينة زاهـرة في موضع عامـر بالخصب، ثمَّ تلاشـى أمرها على أثـر بناء سـيف الدولة الحِلَّة بإزائها بالجانب الأيمن للفرات[١]، ويؤيِّد ليسـترانج هـذا الرأي في كتابه بلدان الخلافة الشرقيَّة[٢].

لقـد تعاقـب عـلى حكم الحِلَّة خمسـة أمـراء من بنـي مزيـد، أوَّلهم الأمـير صدقة (٤٩٥هـ/ ١١٠١م)، وآخرهم الأمير عليّ بن دبيس بن صدقة (٥٤٥هـ/ ١١٦٧م)[٣]، وتبعـت الحِلَّة بعد انتهاء حكـم المزيديِّين إلى الحكم العبَّاسيّ المباشر، واسـتمرَّت هكذا حتَّى سـقوط بغداد على يد المغول، فتبعت الحكم المغوليّ حتَّى وفاة السـلطان أبي سعيد ابن خدابندا بن ارغون بن اباقا بن هولاكو في سـنة (٧٣٦هـ/ ١٣٣٥م)، وهو آخر مَن حكـم من أحفاد هولاكو[٤]، ودخلت الحِلَّة في عـام (٧٣٨هـ/ ١٣٣٧م) تحت الحكم الجلائـريّ[٥]، وأصبحـت عاصمة للحكـم الجلائريّ في عهد الشريـف أحمد الجلائريّ

=العلميَّة من القرن السـابع حتَّى نهاية القرن التاسـع الهجريَّين، رسـالة ماجسـتير غير منشورة مقدَّمة إلى مجلس كليَّة التربية، جامعة بابل، ٢٠٠٧، ص١٢، الأماميّ، دنيا فاضل عبَّاس فوزي، المدارس والخانات التراثيَّة في محافظة بابل (دراسة ميدانيَّة)، رسالة ماجستير غير منشورة مقدَّمة إلى مجلس كليَّة الآداب، جامعة بغداد، ٢٠١٨، ص٩.

(١) دائرة المعرف الإسلاميَّة، ج١٤، نقلًا عن: بابان، أصول أسماء المدن، ص٩٧.

(٢) ليسـترانج، كـي، بلدان الخلافـة الشرقيَّة، ترجمة: فرانسـيس عواد، وكوركيـس عواد، المجمع العلميّ العراقيّ، بغداد، د.ت، ص١٣٢.

(٣) عبـود، أحـلام فاضل، مدينـة الحِلَّة منذ تأسيسـها حتَّى نهاية القرن التاسـع الهجـريّ، بغداد، ٢٠١٠، ص٦.

(٤) القـزَّاز، محمَّـد صالـح داوود، الحياة السياسـيَّة في العـراق في عهد السـيطرة المغوليَّة، النجف الأشرف، ١٩٧٠، ص٢٧٩.

(٥) العـاني، نوري عبد الحميد، العراق في العهد الجلائـريّ (٧٣٨-٨١٤هـ/ ١٣٣٧-١٤١١م)، ط١، بغداد، ١٩٨٦، ص١٩.

في سنة (٧٩٧هـ/ ١٣٩٤م)، وبقيت كذلك حتَّى سنة (٨١٠هـ/ ١٤٠٧م) خلال مدَّة حكم علاء الدين مسعود[١]، وبعد أن اشتدَّ الصراع بين أركان الدولة الجلائريَّة في مراحل أفولها، سيطرت القبائل التركمانيَّة الصاعدة على بغداد وبقيَّة المدن، ومنها الحِلَّة[٢]، ولكنَّها عادت إلى الحكم الجلائريّ مرَّة أخرى في سنة (٨٢٦هـ/ ١٤٢٢م)، واتَّخذت عاصمة لحكمهم أيضًا في عهد السلطان أويس بن شاه الجلائريّ، وبقيت كذلك حتَّى سنة (٨٣٥هـ/ ١٤٣١م)، إذ أصبحت تحت سيطرة دولة (آق قونيلو) الذي سيطر على العراق بشكلٍ عام، وبقي البلد خاضعًا لها حتَّى سنة (٩١٤هـ/ ١٥٠٨م)[٣]، ثمَّ أصبحت الحِلَّة كباقي مدن العراق تحت الحكم الصفويّ حتَّى مجيء سليمان القانونيّ؛ لتُصبح تحت سلطة الحكم العثمانيّ في سنة (٩٤١هـ/ ١٥٣٤م)[٤].

التخطيط العام للمدينة

تبدو مدينة الحِلَّة عِبرَ رسومات نصوح السلاحيّ (المطراقي زادة)[٥]، بأنَّها مربَّعة

(١) العانيّ، العراق في العهد الجلائريّ، ص٤٥.
(٢) الحِلِّيّ، يوسف كركوش، تاريخ الحِلَّة، النجف الأشرف، ١٩٦٥، ج٢، ص١٠١.
(٣) الإماميّ، المدارس والخانات، ص١٣.
(٤) لونكريك، ستيفن هيمسلي، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ترجمة: جعفر الخيَّاط، ط٦، بغداد، ١٩٨٦، ص٣١.
(٥) نصوح أفندي السلاحيّ بن عبد الله قره كوز الشهير بالمطراقي زاده، مؤرِّخ ورحَّالة ورياضي ومهندس عسكريّ ورسَّام، أصله من ولاية البوسنة، عندما كانت جزءًا من الدولة العثمانيَّة، ولد في بلدة (فيسوكو) القريبة من مدينة سراييفو في سنة (٨٨٤هـ/ ١٤٨٠م)، ومهر في فنون الفروسيَّة، وفي العاب الأسلحة، حتَّى اكتسب لقبه (المطراقي) أو (المطراقچي)؛ نسبةً إلى المطراق، وهو الدرع المغلَّف بالجلد، الذي يستخدمه الفرسان في قتالهم. ويظهر أنَّ أمر براعته في التأليف والرسم قد اشتهر عهد ذاك، حتَّى كُلِّف بمهمَّة تسجيل وقائع الحملات العسكريَّة التي شارك فيها، وتزيينها بالصور الملوَّنة التي تمثِّل المدن والقصبات التي مرَّ بها الجيش، أو التي فتحها، له الكثير من المؤلَّفات، ولعلَّ أهمَّ مؤلَّفاته وأعلاها قيمة من الناحية الفنيَّة على الأقل=

الشكل[1]، تحيط بها الأراضي الزراعيَّة والبساتين، ويشطرها نهر الفرات إلى شطرَين متساويَين تقريبًا، وتقع على جانبيه عمائر ومباني وأحياء المدينة (صورة رقم ١)، وبحسب ما وردتنا من مصادر تاريخيَّة، فإنَّ شكل المدينة عند تمصيرها في نهايات القرن الخامس الهجريّ/ الحادي عشر الميلاديّ كانت مستطيلة الشكل، واستمرت- على الأرجح- حتَّى القرن الثامن الهجريّ/ الرابع عشر الميلاديّ على ذلك الشكل[2]، ونستشف ذلك من خلال ما يذكره الرحَّالة الأوائل أمثال ابن جبير الذي زارها خلال القرن السابع الهجريّ/ الثالث عشر الميلاديّ، بقوله: «وهي مدينة كبيرة، عتيقة الوضع، مستطيلة»[3]، وكذلك ما أورده ابن بطُّوطة الذي زارها منتصف القرن الثامن الهجريّ، فقال عنها: «فنزلنا مدينة الحِلَّة، وهي مدينة كبيرة مستطيلة مع الفرات»[4]، ولربَّما تغيَّر شكل المدينة العام إلى المربَّع نتيجة التوسُّع العمرانيّ، وتمدُّد المدينة في المُدَد اللاحقة، وهذا الأمر من الأمور الطبيعيَّة في نشأة المدن ومراحل تطورها وتوسعها، إذ غالبًا ما نرى تغيُّر شكل المدينة عن شكلها الذي شُيِّدت فيه في مرحلة التأسيس،

=كتابه الذي سمَّاه «منازل العراقَين للسلطان سليمان خان»، كانت وفاته سنة (٩٧١هـ/ ١٥٦٤م). الصبيحاويّ، حيدر فرحان حسين، عمارة المشهد الحسينيّ المقدَّس في ضوء رسومات المطراقيّ زاده ٩٤١هـ/ ١٥٣٤م؛ دراسة تحليليَّة، مجلَّة التراث العلميّ العربيّ، جامعة بغداد، ٢٠١٦، ع٤، ص٢٥٨.

(١) رؤوف، عماد عبد السلام، العراق كما رسمه المطراقي زادة (٩٤١هـ/ ١٥٣٤م) رحلة مصوَّرة إلى المشاهد الدينيَّة، ط١، بيروت، ٢٠١٥، ص١٠٧.

(٢) حدَّدنا هذا التاريخ، كون آخر وصف للمدينة الأولى يقع في هذا التاريخ، ولا تتوفَّر لدينا معلومات تاريخيَّة عن شكل المدينة بعد هذا التاريخ.

(٣) ابن جبير، محمَّد بن أحمد الكنانيّ (ت ٦١٤هـ/ ١٢١٦م)، رحلة ابن جبير، بغداد، ١٩٣٧، ص١٩١.

(٤) ابن بطُّوطة، محمَّد بن عبد الله الطنجيّ، رحلة ابن بطُّوطة المسمَّاة تحفة النظَّار في غرائب الأسفار، بيروت، ١٩٣٨، ج١، ص١٣٨.

أو لعلَّ المطراقي خانته دقَّة الأبعاد والمنظور، فصوَّر المدينة بالشكل المربَّع بدل الشكل المستطيل.

نعتقد أنَّ المطراقي كان موفَّقًا حينما نقل لنا من خلال رسوماته إحاطة مدينة الحِلَّة بالأراضي الزراعيَّة العامرة والبساتين، كون المدينة تقع في قلب الفرات الأوسط المعروف بخصوبة تربته ووفرة مصادر المياه الدائمة فيه، التي أدَّت إلى ازدهار الزراعة في المدينة منذ أزمنة بعيدة[1]، وفي ذلك يقول يوسف كركوش: «ولا أريد أن أصف تلك البيئة الفيحاء والجنَّة الغنَّاء من دماثة التربة، واعتدال الجوِّ، وجمال المناخ، وبهجة الطبيعة...»[2].

ومن المناسب قوله إنَّ تشييد مدينة يخترقها نهر جارٍ يحقِّق هدفَين استراتيجيَّين غاية في الأهميَّة، الأوَّل: الهدف العسكريّ- الدفاعي الذي يتمثَّل بتوفُّر المياه في حال تعرُّض المدينة إلى حصار، فضلًا عن اتِّخاذه خطًّا دفاعيًّا يصعب السيطرة عليه بسهولة، أمَّا الهدف الثاني، فهو اقتصادي بامتياز، إذ يوفِّر بيئة صالحة لتكاثر الحيوانات النهريَّة التي يعتاش عليها الإنسان، ولا تتطلَّب عناية بها كالأسماك، فضلًا عن اتِّخاذها ممرًّا مائيًّا لمرور السفن والقوارب التجاريَّة، وتصل إلى وسط المدينة، والواقع أنَّ هذه الفكرة الهندسيَّة ليست وليدة تخطيط مدينة الحِلَّة، وإنَّما على ما يبدو أن ذلك يعدُّ جزءًا من موروثٍ علميٍّ وهندسيّ ورثه العراقيُّون عبر التاريخ، ولعلَّ أقرب المدن التي يمكن الاستشهاد بها بهذا الصدد هي مدينة واسط، التي بناها الحجَّاج بن يوسف الثقفيّ سنة (٨٣هـ/ ٧٠٢م)، الذي امتاز موضعها بكثرة توفُّر مصادر المياه، فهي قد سبقت الحِلَّة، كونها مدينة تتألَّف

(١) كربل، عبد الإله رزوقي، خصائص التربة وتوزيعها الجغرافيّ في بابل، مجلَّة الآداب، جامعة البصرة، ١٩٧٦، ع٦، ص١٢٠

(٢) الحِلِّيّ، تاريخ الحِلَّة، ج٢، ص٣.

من شطرَين، ويخترقها النهر عند وسط المدينة، إذ يذكرها صاحب أحسن التقاسيم، فيقول: «واسط قصبة عظيمة ذات جانبَين وجامعَين وجسر بينهما»[1].

نلاحظ من خلال رسم المطراقي لداخل المدينة أنَّها مكتظَّة بالمباني الفخمة المتنوِّعة الوظيفة، يتخلَّلها مجموعة من الشوارع (صورة رقم ١)، وأن المباني فيها وزِّعت بشكلٍ عشوائيّ دون مراعاة لتنظيم المحلَّات، كالذي عهدناه في المدن الإسلاميَّة الأولى في العراق كالبصرة والكوفة وواسط والموصل ودار السلام وسامرَّاء، والتي امتازت بأنَّها خُطِّطت وفق اعتبارات ومتطلَّبات وشروط وظائف المدينة الفعليَّة[2]، والذي نستطيع أن نلمسه في المدينة العراقيَّة ما يمكن عدُّه تنظيمًا وظيفيًّا، فهناك مناطق خاصَّة للسكن والعبادة والإدارة ومراكز النشاط الاقتصاديّ والتجاريّ والخدميّ[3]، وشوارع المدينة هي الأخرى كانت متعرِّجة وغير نظاميَّة وتقاطِعها في بعض الأحيان المباني المنتشرة في المدينة.

لعلَّ ذلك يعكس الإهمال الحاصل، وانعدام التنظيم في تخطيط المدن بشكلٍ عامٍّ خلال فترة الاحتلالات، وصولًا للاحتلال العثمانيّ- الفترة التي قام المطراقي بتصوير مدينة الحِلَّة وعمارتها- ولذلك انبرى بعض الكتَّاب والرحَّالة الغربيِّين إلى وصف المدن العربيَّة- ومنها مدينة الحِلَّة- بأنَّها مدن لا تمتلك مقوِّمات المدنية، وبلا تنظيمات بلديَّة

(١) المقدسيّ، شمس الدين أبو عبد الله محمَّد بن أحمد (ت ٣٨٧هـ/ ٩٩٧م)، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، بريل، ١٩٠٦، ص١١٨.

(٢) خطاب، عادل عبد الله، خصائص استعمالات الأرض في المدينة العربيَّة، دراسة في التراث لمدن البصرة والكوفة وبغداد، مركز إحياء التراث العلميّ العربيّ، جامعة بغداد، ١٩٨٦، ص٣.

(٣) الصبيحاويّ، حيدر فرحان حسين، المعالجات التخطيطيَّة والعماريَّة لأثر البيئة الطبيعيَّة في المدينة العربيَّة الإسلاميَّة في العراق حتَّى سنة ٥٦٥هـ/ ١٢٥٨م، أطروحة دكتوراه غير منشورة، مقدَّمة إلى مجلس كليَّة الآداب، جامعة بغداد، ٢٠١٤، ص٦١.

تـشرف على تنظيمها وتخطيطها وأدامتها[1]، وفي ذلك يقول غوسـتاف لوبون: «لا يزال كثير من المدن العربيَّة الحاضرة على ما كانت عليه المدن العربيَّة في سـالف الأزمان، وقد تكلَّمت غير مرَّة عن منظر شـوارعها الملتوية المشوَّشـة، وليست شوارع الشرق موضع عناية أحد»[2].

هـذا التصـوُّر عـن المـدن العربيَّة في فـترات الاحتـلال المتأخِّـرة يؤكِّـده الرحَّالة البرتغاليّ غودنهو الذي زار مدينة الحِلَّة سـنة (١٠٧٣هـ/ ١٦٦٣م) قائلًا: «هذه المدينة الوادعـة الواقعة على نهر الفـرات... إلَّا أنَّ أزقَّتها وطرقها ضيِّقة، وهي أشـبه بالمتاهة، ولا يمكن للسـائر أن يسـتدلَّ على طريقه دون دليل، فليس هناك شـارع مسـتقيم»[3]، وذكرها السـلطان محمَّد ميرزا الملقَّب بسـيف الدولة ابن السلطان أحمد بن فتح عليّ شاه أثناء رحلته إلى مكَّة المكرَّمة سـنة (١٢٧٩هـ/ ١٩٠١م) قائـلًا: «الحِلَّة من المدن المعتبرة والمشـهورة، وهي الآن ليس بتلك العمارة... والحِلَّة تتمتَّع بأسـواق ومساجد وحمَّامات ومقاهٍ، إلَّا أنَّه لا توجد بها تلك الحركة العمرانيَّة»[4].

ولا بدَّ من القول إنَّ واقع مدينة الحِلَّة في مرحلة التأسـيس وما تلاها لم تكن بالحال الـذي وصفه الباحثـون الغربيُّون، وهذا ما يؤكِّـده الرحَّالة الذيـن زاروا المدينة خلال القـرون الثلاثة الأولى من تمصيرها، أي القرون السـادس والسـابع والثامن الهجريّ/ الثـاني عـشر والثالث عشر والرابـع عشر الميلاديّ، والذين أشـادوا بفخامـة العمران، وتنظيم شـوارعها وأزقتها، وعدُّوها من أفخر بلاد المسـلمين، فيصفها الحمويّ بقوله:

(١) خطاب، خصائص استعمال الأرض، ص١٥.
(٢) لوبون، غوستاف، حضارة العرب، ترجمة: محمَّد عادل زعيتر، القاهرة، ١٩٤٥، ص٣٨٩.
(٣) الحسـينيّ، حيدر السـيِّد موسـى وتوت، مدرسـة الحِلَّة وتراجم علمائها من النشـوء إلى القمَّة (٥٠٠-٩٠٠هـ) وما بعدها بقليل، ط١، كربلاء المقدَّسة، ٢٠١٧، ص٢٢.
(٤) جعفريان، رسول، سفر نامة، ط١، طهران، د.ت، ج٢، ص١٥٥.

«... فنزل بها بأهله وعساكره. وبنى بها المساكن الجليلة والدور الفاخرة، وتأنَّق أصحابه في مثل ذلك فصارت ملجأ، وقصدها التجَّار فصارت أفخر بلاد العراق وأحسنها»[١].

ويذهب إلى ذات الوصف الرحالة ابن جبير خلال حقبة القرن السابع الهجريّ بقوله: «ولهذه المدينة أسواق حفيلة جامعة للمرافق المدنيَّة، والصناعات الضروريَّة، وهي قويَّة العمارة... والطريق من الحِلَّة إلى بغداد من أحسن الطرق وأجملها في بسائط من الأرض وعمائر تتَّصل بها القرى... فللعين في هذه الطريق مسرح انشراح، وللنفس مزيد انبساط وانفساح، والأمن فيها متَّصل بحمد الله سبحانه وتعالى»[٢]. ويحدِّثنا عنها ابن بطُّوطة في القرن الثامن الهجريّ، فيقول: «لها أسواق حسنة جامعة للمرافق والصناعات، وهي كثيرة العمارة»[٣].

وبذلك نخرج بمحصِّلة منطقيَّة، هي أنَّ المدينة العربيَّة خُطِّطت وفُتحت فيها الطرق بأبعادها المختلفة بشكلٍ يضمن حريَّة الحركة وسهولة الوصول، وفق معايير دقيقة في الوقت الذي بنيت فيه تلك المدن، ومنها مدينة الحِلَّة- موضوع البحث- إلَّا أنَّ ضعف الدولة أيَّام الاحتلال الأجنبيّ، وغياب التنظيمات البلديَّة عندئذ أدَّى إلى التعدِّي على الطرقات، فعميت الشوارع، وعمل على التوائها[٤].

لقد صوَّر لنا المطراقي عمائر متنوِّعة من مدينة الحِلَّة، غلب عليها الطابع العسكريّ والإداريّ والخدميّ والدينيّ، كالأسوار، والقلاع، والجسر، والمساجد، والمراقد، والمدارس، **إمَّا العمارة العسكريَّة:**

(١) الحمويّ، معجم البلدان، مج٢، ص١٧٦.
(٢) ابن جبير، رحلة، ص ١٩١.
(٣) ابن بطُّوطة، رحلة، ج١، ص١٣٨.
(٤) خطاب، خصائص، ص١٦.

أوَّلًا: الأسوار

يحيط بالمدينة من شطرَيها الأيمن والأيسر سور ضخم، ينفصل عند وسطه؛ لوجود نهر الفرات الذي يخترق المدينة، كما أشرنا لذلك. (صورة رقم ٢ و٣).

للسور ستَّة مداخل، موزَّعة بواقع ثلاثة مداخل في كلِّ جانب من جانبَي المدينة، وبالمجمل فإنَّ المداخل تتوزَّع بواقع مدخَلَين على كلٍّ من الضِّلعَين الشماليّ[1] والجنوبيّ، ومدخل واحد لكلٍّ من الضِّلعَين الشرقيّ والغربيّ (صورة رقم ٢و٣)، ويذكر الرحَّالة باسنز الذي زار الحِلَّة سنة (١١٨٧هـ/ ١٧٧٤م) بأنَّ لها أربعة أبواب، إذ يقول: «وفي الحِلَّة أبواب، وهي: باب بغداد في شمال المدينة، وتقود إلى الطريق البرِّيّ بين بغداد والحِلَّة، وباب كربلاء إلى الشمال الغربيّ، وباب الطهمازيَّة في غربها، وباب النجف، وقد عُرِفت هذه الأبواب بأسماء المدن أو المناطق التي تتَّجه نحوها»[2]، وهنا لا بدَّ من التذكير أنَّ المطراقي قد صوَّر لنا ستَّة أبواب للحِلَّة، وليست أربعة، ولعلَّه تمَّ أغلاق بابَين في الفترة اللاحقة التي تلت زيارة المطراقي، إذ إنَّ بين تصوير المطراقي وزيارة الرحالة باسنز ما يقارب القرنَين ونصف من الزمان، أو لربَّما لم يذكر باسنز البابَين الآخرَين، أو لعلَّ ما ذكره الرحَّالة باسنز ليس هو السور الذي صوَّره المطراقي، ولا نستطيع التكهُّن بأرجحيَّة أيٍّ من الاحتمالات؛ لسكوت المصادر التاريخيَّة وكتب الرحَّالة عن ذكرهما، سواء قبل تصويرهما من قبل المطراقي أم بعده.

في عودة إلى أبواب سور الحِلَّة، فإنَّها امتازت بكونها متقابلة، إذ نلاحظ أنَّ كلَّ مدخل يقابل مدخلًا آخر في الضلع المقابل، كما امتازت بالتماثل أو التناظر، فكلٌّ منها

(١) اعتبرنا الضلع الشماليّ في أعلى الصورة رقم (١) تماشيًا مع المنهجيَّة المتَّبعة في التنقيبات الأثريَّة التي تجعل الضلع الشماليّ للمباني في أعلى الصفحة.
(٢) الحسينيّ، مدرسة الحِلَّة، ص٢٣.

ذو مدخل مستقيم، يطلُّ على داخل المدينة بشكلٍ مباشر، وينتهي من الأعلى بعقد نصف إسطوانيّ، ولم يتوضَّح لدينا شكل الباب من حيث مادَّة الصنع أو شكله العام.

يدعم السور مجموعة من الأبراج العالية التي تبرز عن واجهة الجدار الخارجيّ للسور، توزَّعت بمسافات متساوية شغلت الأركان الأربعة من السور ببرج، وبرجَين على جانبَي مداخل الجانب الأيمن من السور (صورة رقم ٢)، بينما اعتلى كلَّ مدخل من مداخل الجانب الأيسر برج (صورة رقم ٣).

امتازت تلك الأبراج بشكلها المستطيل الذي ينتهي بشرفات مسنَّنة، واحتوت على مزاغل عموديَّة (طوليَّة) في الجزء العلويّ منها، احتوى كلُّ برج على مزغَلَين متجاورَين في أعلاه، بينما انفردت بعض أبراج المداخل والأركان باحتوائهم على ثلاثة مزاغل عموديَّة في الأعلى، ومزغل واحد في الجزء الأسفل منه، وهذا الأمر يجعلنا نرجِّح أنَّ أبراج المداخل هي عبارة عن حجرات من طابقَين؛ لتقوية ودعم الجانب الدفاعيّ عند المداخل، وهذا النظام الدفاعيّ للأبراج نجده في مدن وقلاع مشرق العالم الإسلاميّ خلال القرون الإسلاميَّة الوسطى، ومنها قلعة فيروز شاه طغلق بالهند، التي يعود تاريخ تشييدها إلى سنة (٧٥٥هـ/ ١٣٤٥م)، إذ اكتنف جانبَي مداخل سور القلعة على حجرة من طابقَين ضمَّت مجموعة من المزاغل الموزَّعة على صفَّين، علويّ وسفليّ، لكلِّ حجرة منهما[١]. ينتهي السور من الأعلى بممرٍّ مفتوح يُستخدم للمراقبة لمسافات بعيدة، وكذلك موضع للدفاع عند الهجوم على المدينة.

يعتقد أحد الباحثين أنَّ السور مبنيٌّ من الآجر، ويعود لمدَّة زمنيَّة واحدة، ويستند إلى جملة دلائل على أنَّ هذا السور يرتقي إلى عهدٍ واحد، من ذلك أنَّها جميعًا بلونٍ واحد،

(١) الصبيحاويّ، حيدر فرحان حسين، عمارة مشرق العالم الإسلاميّ، بغداد، ٢٠١٨، ص٥٤.

وبارتفاع واحد، وتصميم متماثل، وتنتظمها سلسلة من الأبراج العالية المتقاربة وعلى مسافات متساوية[١].

ولعلَّنا نختلف مع الباحث في الشطر الأوَّل من الرأي، ونتَّفق معه في الشطر الثاني، فأمَّا ما يخصُّ بناء السور بالآجر، فجميع المصادر التاريخيَّة وكتب الرحَّالة تؤكِّد أنَّ السور قد بُني من الطين، أو لعلَّهم قصدوا مادَّة (اللِّبن غير المشويّ)، ولم يذكر أحدٌ منهم أنَّ لها سورًا من الآجر، فقد جاء في رحلة أبن جبير ما نصُّه: «لم يبقَ من سورها إلَّا حلقٌ من جدارٍ ترابيٍّ مستديرٍ بها»[٢]، كما يؤكِّد الرحَّالة الأب فيليب الكرمليّ ذلك عندما زار الحِلَّة سنة (١٠٣٨هـ/ ١٦٢٩م)، فقال:«مدينة كبيرة محاطة بأسوار من الطين تمتدُّ من شاطئ النهر»[٣].

أمَّا ما ذهب اليه من أنَّ السور بُنيَ في مدَّة زمنيَّة واحدة، فأتَّفق معه تمامًا، على الرغم من عدم ترجيحه للمدَّة التاريخيَّة التي شيِّد بها هذا السور، ورغم قلَّة ما توارد من أخبار ذكر للسور، إلَّا في بعض كتب الرحلات، فأغلب الظنِّ أنَّه شيِّد خلال مدَّة حكم الإمارة المزيديَّة، وتحديدًا من قِبل الأمير صدقة الذي تولَّى الحكم سنة (٤٩٧هـ/ ١١٠٣م)[٤]، وممَّا يؤكِّد هذه الحقيقة أنَّ ابن جبير قد ذكره بعد مرور قرن من الزمان على تمصيرها من قبل المزيديِّين واتِّخاذها عاصمة لملكهم، وكان عبارة عن جدار ترابيّ، كما وصفه، ويأتي وصف السور بذات المواصفات على لسان الرحَّالة الكرمليّ الذي زار المدينة بعد تصوير المطراقي للسور بحدود قرن من الزمان أيضًا، ولعلَّ جلَّ ما جرى للسور المزيديّ هو

(١) رؤوف، العراق، ص١٠٧.
(٢) أبن جبير، رحلة، ص١٩١.
(٣) السعيد، صلاح، الحِلَّة في مذكرات الرحَّالة والمستكشفين، ط١، بابل، ٢٠٠٨، ص٦٠.
(٤) ابن الجوزيّ، جمال الدين عبد الرحمن بن عليّ القريشّي (ت ٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م)، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، بيروت، ١٩٥٥، ج٩، ص٢٣٥.

إجراء بعض الأعمال الترقيعيَّة، أو الإصلاحات الجزئيَّة؛ لغرض ديمومته.

من الأمور التي تسترعي الانتباه وتثير الاستغراب، هو إغفال معظم المؤرِّخين والرحَّالة الذين كتبوا عن تاريخ الحِلَّة أو زاروها وتحدَّثوا عنها، الخندق الذي ذكره ابن الجوزي في المنتظم والذي أكد فيه وجود خندق يتقدَّم السور، وكان ذلك خلال تولِّي الأمير صدقة الإمارة بعد وفاة والده منصور بن دبيس، إذ قال: «وجعل عليها سورًا وخندقًا، وانشأ بساتين»[1]، وجاء ذكر الخندق أيضًا في حديث الشيخ عليّ ابن يوسف الحِلِّيّ في كتابه (العدد القويَّة لدفع المخاوف اليومية)، والتي تفيد بأنَّه كان هناك خندق محفور يدور حول الحِلَّة وذلك سنة (٤٩٨هـ/ ١١٠٤م)، إذ جاء فيه: «نزل سيف الدولة صدقة بن منصور بن عليّ بن دبيس سنة ثلاث وتسعين وأربعمائة... ووضع الأساس للدور والأبواب سنة خمس وتسعين وأربعمائة، وحفر الخندق حول الحِلَّة سنة ثمان وتسعين وأربعمائة»[2]. فضلًا عن ذلك فإنَّ المطراقي هو الآخر لم يُظهر لنا وجود خندق حينما صوَّر المدينة، ولعلَّ الخندق قد رُدِم في مرحلة لاحقة من تأسيس المدينة، لم يدركه المطراقي.

ثانيًا: القلاع

على ضفتَي النهر الفاصل بين جانبَي مدينة الحِلَّة الأيمن والأيسر، يصوِّر لنا المطراقي زاده قلعتَين متقابلتَين (صورة رقم١)، وكلٌّ منهما تقع في مواجهة أحد مداخل سور المدينة (صورة رقم ٤ و٥).

موضع القلعتَين ينمُّ عن دراية ومعرفة عالية بالفكر العسكريّ والتحصينات

(١) ابن الجوزيّ، المنتظم، ج٩، ص٢٣٥.

(٢) الحِلِّيّ، رضي الدين عليّ بن يوسف ابن المطهَّر (ت ٧٠٥هـ)، العدد القويَّة لدفع المخاوف اليوميَّة، تحقيق: مهدي الرجائيّ، ط١، مكتبة المرعشيّ، ١٤٠٨هـ، ص٢٦٠.

الدفاعيَّة، إذ إنَّ موضعهما على كتفَي النهر، وبالقرب من الجسر الوحيد الرابط بين جانبي مدينة الحِلَّة، يوفر خطًّا دفاعيًّا إضافيًّا، يمكِّن ساكني القلعة من اتِّخاذ الطريق النهريّ بالخروج أو الانسحاب من القلعة في حالة محاصرتها، فضلًا عن إمكانيَّة التحوُّل من جانب المدينة إلى الجانب الآخر، في حال هوجمت القلعة من أحدهما، يمكن استعمال الجسر للانتقال إلى الجانب الآخر، ولربَّما يعمد المدافعون إلى قطع الجسر الوحيد؛ لعرقلة القوَّات المهاجمة.

قلعة الجانب الأيمن (قلعة بابل): في جانب الحِلَّة السيفيَّة المزيديَّة (صورة رقم ٤)، يصوِّر لنا المطراقي قلعة تتَّخذ من كتف النهر موضعًا لها.

ويبدو أنَّها دائريَّة كاملة الاستدارة، يحيط بها سورٌ عالٍ، لعلَّه مشيَّد من الآجر والجصِّ؛ نظرًا لاستقامته، ويدور حول الجزء العلويّ منه ممَّر لتوفير الحركة للمدافعين عن القلعة، وقد زوِّد بأبراج عالية مربَّعة المقطع، ويؤطِّر أعلى السور والأبراج شرفات مسنَّنة، يتخلَّل الأجزاء العليا من السور والأبراج مزاغل طوليَّة تظهر مدوَّرة من أسفلها، ومستطيلة من أعلاها، موزَّعة بمسافات متساوية، كما تظهر في تصويرة المطراقي زاده.

على ما يبدو أنَّ للقلعة مدخلًا واحدًا يتوسَّط الشكل الدائريّ، يعلوه عقد نصف إسطوانيّ، ولهذا المدخل باب من مصراعَين، ولم تظهر تفاصيل المباني الداخليَّة للقلعة باستثناء بناء مشيَّد بالآجر، يبدو أنَّه دائريّ الشكل مسقَّف بقبَّة كبيرة وعالية، تستدقُّ كلَّما ارتفعت نحو الأعلى، وتقوم فوقها رقبة إسطوانيَّة عالية ترتفع فوق مستوى السور والأبراج، تنتهي الرقبة بصفٍّ من النوافذ المصفوفة عموديًّا، ذوات عقد نصف إسطوانيّ، ويغلب الظنَّ أنَّ هذه النوافذ من النوافذ المتحرِّكة التي يمكن فتحها وإغلاقها عند الحاجة، وتقوم فوق الرقبة الإسطوانيَّة قبَّة مخروطيَّة هرميَّة مضلَّعة على غرار القباب المخروطيَّة في مراقد المدينة، وكانت تلك القبَّة مزجَّجة باللون الأخضر، تخلَّلها

تشكيلات هندسيَّة عبارة عن معينات متراصَّة (صورة رقم ٦).

قلعة الجانب الأيسر (دار السلطان): على الجانب الأيسر، أي محلَّة الجامعَين، وبمحاذاة كتف النهر، هناك قلعة ثانية (صورة رقم ٥).

الجزء الظاهر من القلعة هو أحد أضلاع السور الخارجيّ الذي يتمثَّل بواجهة ضخمة، لها جدار عالٍ يتوسَّطه مدخل واسع، ينتهي من الأعلى بعقد نصف إسطوانيّ، ولم يتوضَّح الباب الذي يغلق فتحة المدخل وتصميمه.

في أعلى جانبي المدخل مزغَلَان، وهما شبيهان بالمزاغل التي توزَّعت على السور الخارجيّ للمدينة- سابق الذِّكر- إذ يتكوَّن كلٌّ منهما من شكلٍ دائريٍّ في الأسفل، يعلوه مستطيل بوضعٍ عموديّ، وينتهي الجدار بشرافاتٍ مسنَّنة، وعند رُكنَي هذا الضلع ينتصب برجَان إسطوانيَّان قريبًا الشَّبه من تصميم المئذنة، إذ تتكوَّن كلٌّ واحدةٍ منهما من بدن إسطوانيّ، في أعلاه مزغَلان متجاورَان شبيهان بمزغَلَي مدخل القلعة، ويعلو هذا البدن حوض دائريّ في أطرافه العليا صفٌّ من المزاغل التي تدور حوله، ثمَّ تقوم فوقه قبَّة هرميَّة مضلَّعة، وكانت تلك القبَّة مزجَّجة باللون الأخضر، تتخلَّلها تشكيلات هندسيَّة عبارة عن مَعينات ومثلَّثات ودوائر (صورة رقم٧).

نفترض من تلك الواجهة أنَّ القلعة ذات شكل مربَّع أو مستطيل، ومتناظر بالشكل، ولعلَّ هذا الضلع هو الوحيد الذي له مدخل، بينما باقي الأضلاع خالية من المدخل، ونتبنَّى هذا الرأي، كون المداخل أضعف نقطة في الأبنية ذات الصفة العسكريَّة، ويمكن اختراقها بسهولة، ولذلك يحاول أصحاب القلاع تقليص عدد المداخل، وغالبًا ما يكتفون بمدخلٍ واحد؛ بهدف توفير تحصينات دفاعيَّة صعبة الاختراق.

لم تُسعفنا ذاكرة التاريخ بذكر تلك القلعتَين، والمدَّة الزمنيَّة التي شيِّدت بهما القلعتَين

المذكورتَين، ولكن يورد لنا العزَّاويّ في حوادث سنة (٨٧٣هـ/ ١٤٩٥م)، أثناء ولاية حسن عليّ بن زينل والي بغداد، رواية يشير فيها إلى وجود قلعتَين في الحِلَّة، إذ يذكر: «... ثمَّ أعطى الحِلَّة إلى شاه عليّ بن قرا موسى، فعصى عليه، وجاء بشخص يُقال له شاه عليّ بن إسكندر... وهو درويش، فأقامه في الحِلَّة وسلطنه، وأقاما جميعًا مدَّة على هذا الحال، فأرسل إليهما حسن عليّ المذكور أخاه شاه منصور وجماعة معه، فوصلوا إلى قلعة بابل، فرأوا حرَّاس شاه عليّ بن قرا موسى فتلاقوا معهم واصطلحوا... وقالوا لهم الجسر منصوب نمضي على غفلة، فما شعر أولئك إلَّا والعسكر عابر على الجسر... ومضوا إلى أن وصلوا إلى دار السلطان، فأحاطوا بها. وكان ابن اسكندر وابن قرا موسى في القلعة وهم عرايا، فأخذوهم وقتلوا ابن قرا موسى، وأمَّا ابن اسكندر فألقى بنفسه إلى صاحب الزمام، وقال: كنت درويشًا وهذا جاء بي قهرًا، وطلب الأمان، فلم يفد قوله هذا، وضربوا رقبته وحزُّوا رأسه، وأرسلوه إلى بغداد»[1].

عند دراستنا لتفاصيل هذه الحادثة، نجد أن القلعتَين كانتا موجودَتَين خلال تلك الحقبة، إذ أُطلق على الأولى (قلعة بابل) بقوله:«فوصلوا إلى قلعة بابل»، أمَّا الثانية فعُرِفت بدار السلطان، وهي عبارة عن قلعة أخرى، إذ جاء في رواية الحادثة: «ومضوا إلى أن وصلوا دار السلطان... وكان ابن اسكندر وابن قرا موسى في القلعة»، وإذا ما اختصرنا ما جاء في نصِّ رواية الحادثة، فيمكن أن نخرج بمحصِّلة مفادها: «فوصلوا إلى قلعة بابل... وقالوا لهم الجسر منصوب... ومضوا إلى أن وصلوا دار السلطان... وكان ابن اسكندر وابن قرا موسى في القلعة»، وهذا الوصف يتطابق تمامًا مع توزيع القلعتَين في تخطيط مدينة الحِلَّة، إذ يقعان متناظرتان، كلٌّ واحدة منهما على ضفة من ضفتي النهر، وقريبة من الجسر الرابط بين طرَفَي المدينة (صورة ١و٣).

(١) العزَّاويّ، العراق بين احتلالَين، مج٣، ص١٩٣.

الصور

صورة رقم «١»

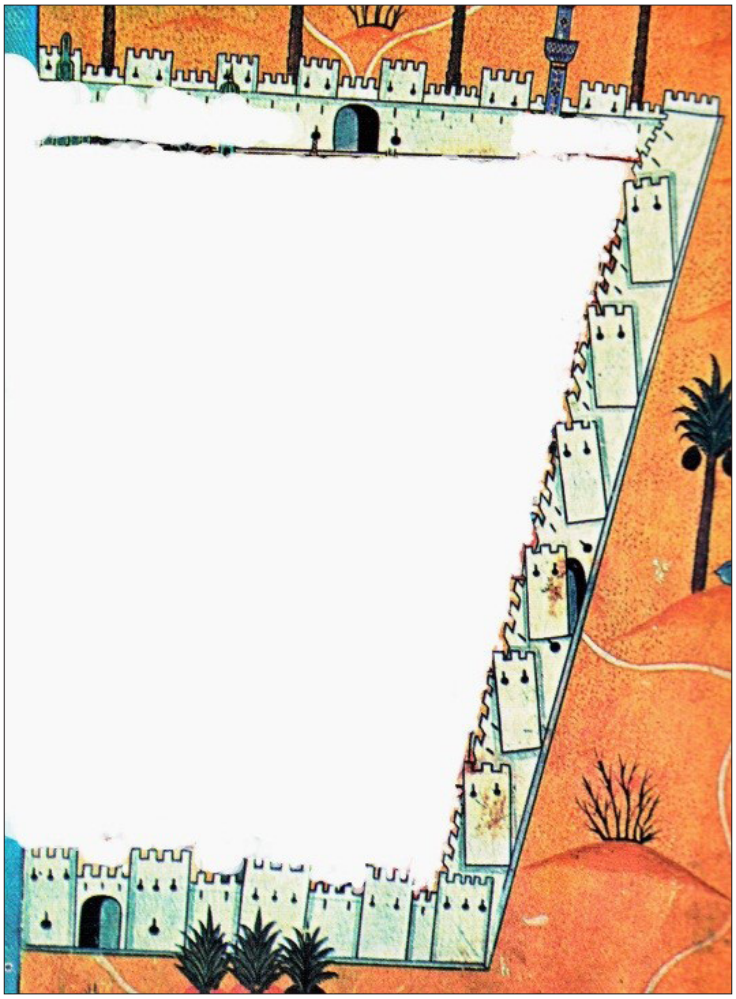

صورة رقم «٢»

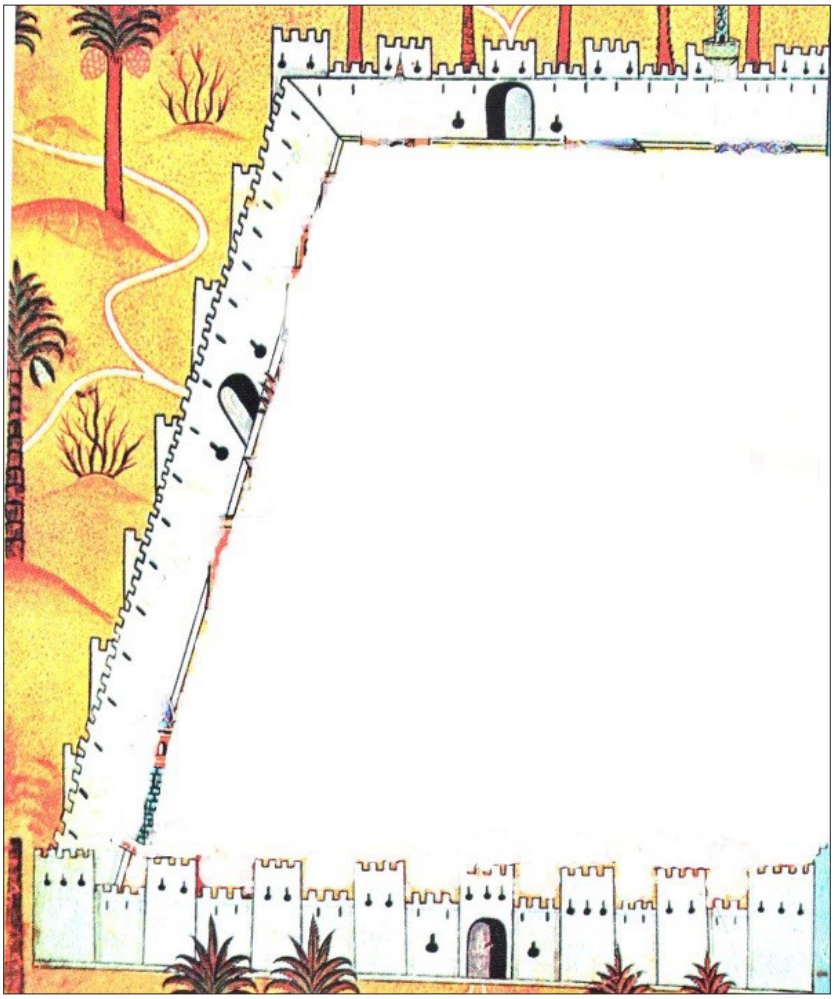

صورة رقم «٣»

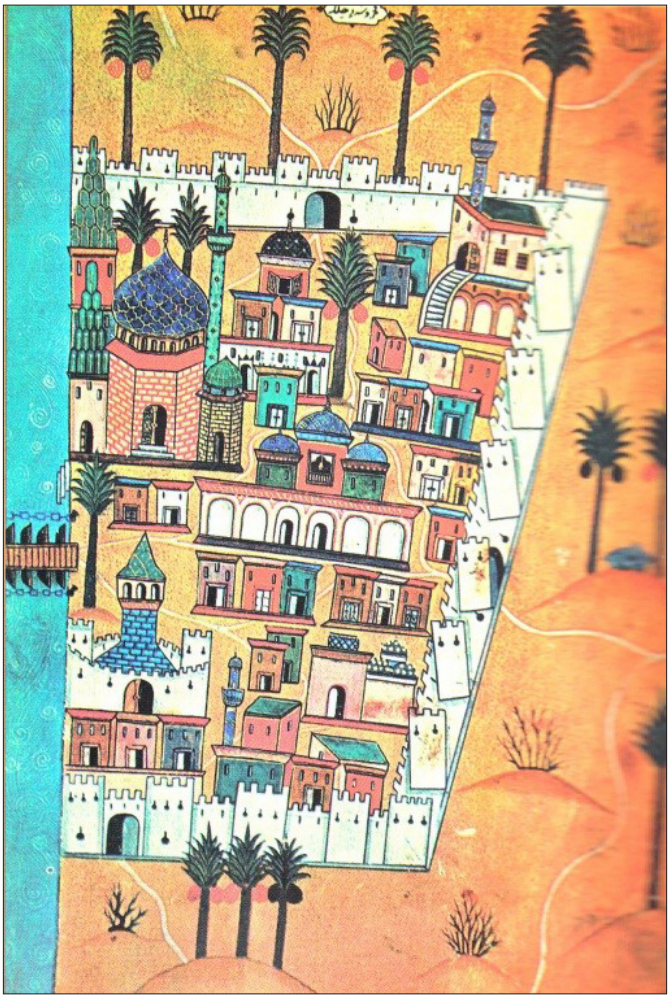

صورة رقم «٤»

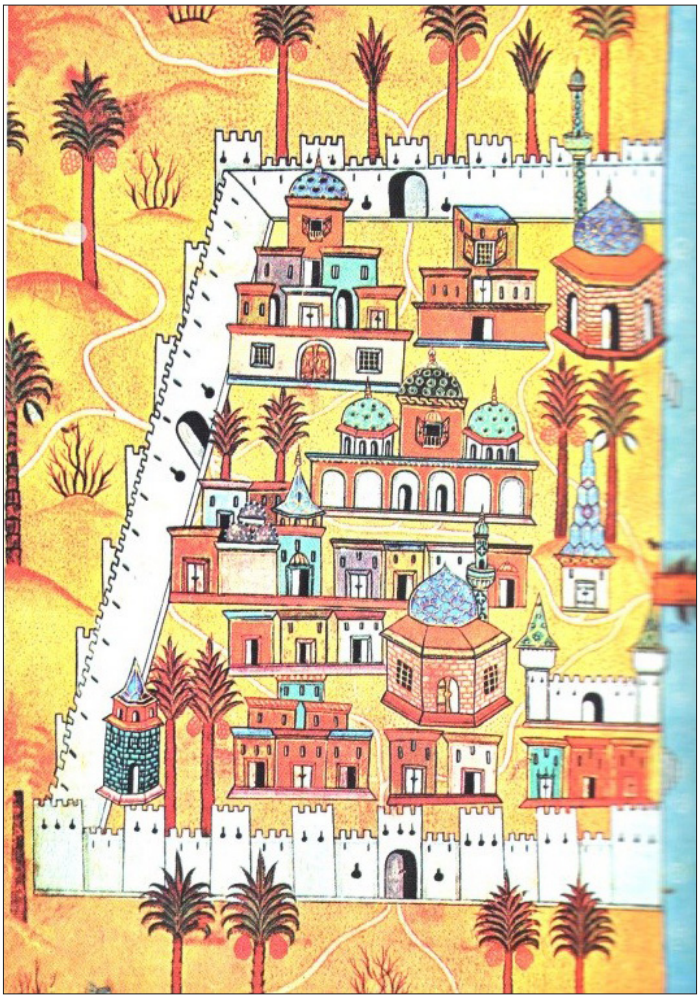

صورة رقم «٥»

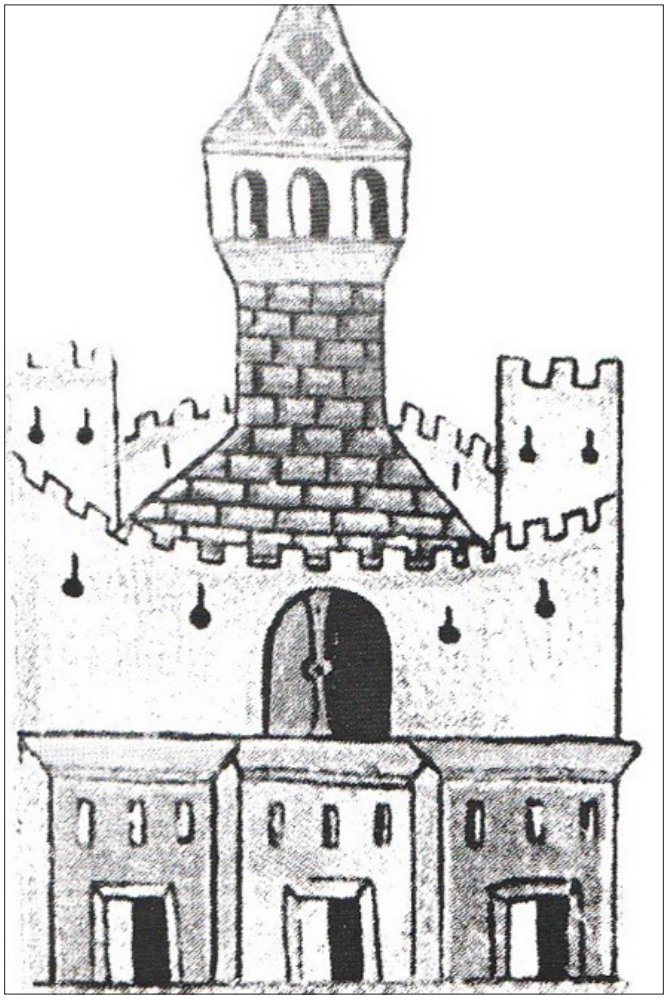

صورة رقم «٦»

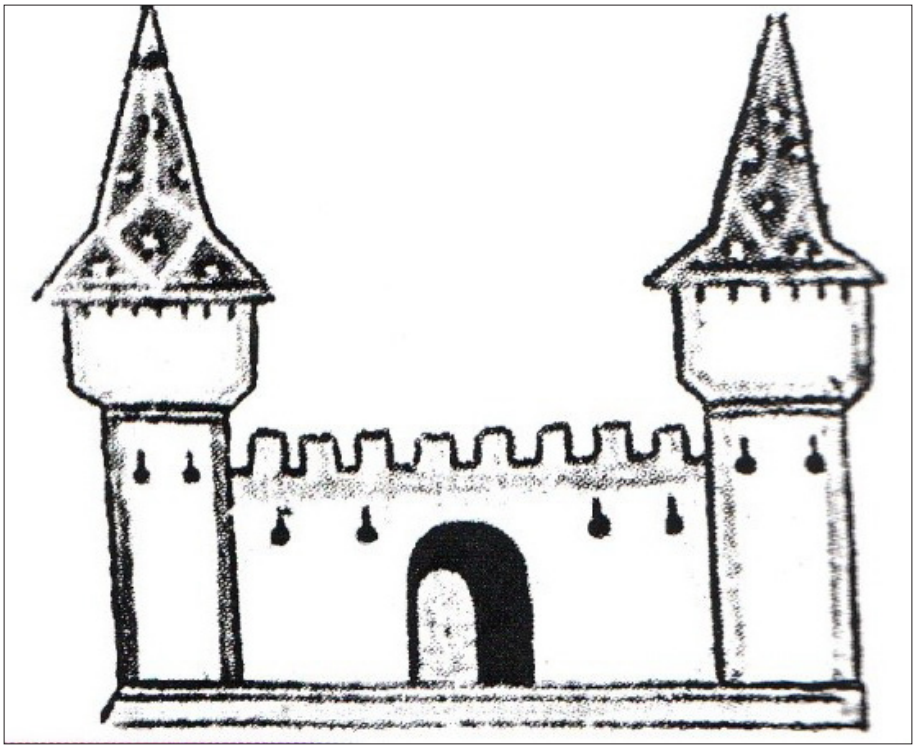

صورة رقم «٧»

المصادر

* القرآن الكريم.

١. ابـن بطُّوطـة، محمَّد بن عبـد الله الطنجيّ (ت ٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م)، رحلة ابن بطُّوطة المسمَّاة تحفة النظَّار في غرائب الأسفار، بيروت، ١٩٣٨، ج١.

٢. ابن جبـير، محمَّد بن أحمد الكنـانيّ (ت ٦١٤هـ/ ١٢١٦م)، رحلة ابن جبير، بغداد، ١٩٣٧.

١. ابن الجوزيّ، جمال الدين عبد الرحمن بن عليّ القريشيّ (ت ٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م)، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، بيروت، ١٩٥٥، ج٩.

٢. بابان، جمال، أصول اسماء المدن والمواقع العراقيَّة، ط٢، بغداد، ١٩٨٦، ج١.

٣. باقر، طه، بابل وبورسبا، ط١، بغداد، ١٩٥٩.

٤. جعفريان، رسول، سفر نامة، ط١، طهران، د.ت، ج٢.

٥. الجنـابيّ، عبـد الزهرة عـليّ وآخـرون، موسـوعة الحِلَّـة الحضاريـة (المحور الجغـرافي)، ط١، مركز بابل للدراسـات الحضاريَّة والتاريخيَّـة، جامعة بابل، ٢٠١٢.

٦. الجنابيّ، قيس حاتم، تاريخ الشرق الأدنى القديم، ط٣، عمان، ٢٠١٢.

٧. الحدَّاد، سعد، مراقد الحِلَّة الفيحاء، ط٢، النجف الأشرف، ٢٠١٢، ج١.

٨. الحسيني، حيدر السيِّد موسى وتوت، مدرسة الحِلَّة وتراجم علمائها من النشوء إلى القمة (٥٠٠-٩٠٠هـ) وما بعدها بقليل، ط١، كربلاء المقدَّسة، ٢٠١٧.

٩. الحِلِّيّ، رضي الدين علي بن يوسف ابن المطهَّر (ت ٧٠٥هـ/ ١٣٢٧م)، العُدد القويَّة لدفع المخاوف اليوميَّة، تحقيق: مهدي الرجائيّ، ط١، مكتبة المرعشيّ، ١٤٠٨هـ.

١٠. الحِلِّيّ، يوسف كركوش، تاريخ الحِلَّة، النجف الأشرف، ١٩٦٥، ج٢.

١١. الحمويّ، ياقوت بن عبد الله الروميّ (ت ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م)، معجم البلدان، بيروت، ١٩٩٦، مج١.

١٢. خطاب، عادل عبد الله، خصائص استعمالات الأرض في المدينة العربيَّة، دراسة في التراث لمدن البصرة والكوفة وبغداد، مركز إحياء التراث العلميّ العربيّ، جامعة بغداد، ١٩٨٦.

١٣. الذهبيّ، شمس الدين محمَّد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ/ ١٣٧٠م)، سير إعلام النبلاء، تحقيق: محب الدين أبو سعيد عمر العمريّ، ط١، بيروت، ١٩٩٧، ج١٤.

١٤. الرازي، محمَّد بن أبي بكر بن عبد القادر، مختار الصِّحاح، بيروت، ١٩٧٩.

١٥. رؤوف، عماد عبد السلام، العراق كما رسمه المطراقي زادة (٩٤١هـ/ ١٥٣٤م) رحلة مصوَّرة إلى المشاهد الدينيَّة، ط١، بيروت، ٢٠١٥.

١٦. زميزم، سعيد رشيد، دول الشيعة عبر التاريخ، ط١، كربلاء المقدَّسة، ٢٠٠٨.

١٧. السعيد، صلاح، الحِلَّة في مذكرات الرحَّالة والمستكشفين، ط١، بابل، ٢٠٠٨.

١٨. الصبيحاويّ، حيدر فرحان حسين، عمارة المشهد الحسينيّ المقدس في ضوء رسومات المطراقي زاده (٩٤١هـ/ ١٥٣٤م) دراسة تحليليَّة، مجلَّة التراث العلميّ العربيّ، جامعة بغداد، ٢٠١٦، ع٤.

١٩. الصبيحاويّ، حيدر فرحان حسين، المعالجات التخطيطيَّة والعماريَّة لأثر البيئة الطبيعيَّة في المدينة العربيَّة الإسلاميَّة في العراق حتَّى سنة (٦٥٥هـ/ ١٢٥٨م)، أطروحة دكتوراه غير منشورة، مقدَّمة إلى مجلس كليَّة الآداب، جامعة بغداد، ٢٠١٤.

٢٠. الصبيحاويّ، حيدر فرحان حسين، عمارة مشرق العالم الإسلاميّ، بغداد، ٢٠١٨.

٢١. العاني، نوري عبد الحميد، العراق في العهد الجلائري (٧٣٨-٨١٤هـ/ ١٣٣٧-١٤١١م)، ط١، بغداد، ١٩٨٦.

٢٢. عبود، أحلام فاضل، مدينة الحِلَّة منذ تأسيسها حتَّى نهاية القرن التاسع الهجريّ، بغداد، ٢٠١٠.

٢٣. الفيروز آباديّ، مجد الدين محمَّد بن يعقوب (ت ٨١٧هـ/ ١٤٣٩م)، القاموس المحيط، إعداد وتقديم: محمَّد عبد الرحمن المرعشليّ، ط٢، بيروت، ٢٠٠٣.

٢٤. القزَّاز، محمَّد صالح داود، الحياة السياسيَّة في العراق في عهد السيطرة المغوليَّة، النجف الأشرف، ١٩٧٠.

٢٥. كربل، عبد الإله رزوقي، خصائص التربة وتوزيعها الجغرافيّ في بابل، مجلّة الآداب، جامعة البصرة، ١٩٧٦، ع٦.

٢٦. لوبون، غوستاف، حضارة العرب، ترجمة: محمَّد عادل زعيتر، القاهرة، ١٩٤٥.

٢٧. ليسترانج، كي، بلدان الخلافة الشرقيَّة، ترجمة: فرانسيس عوَّاد وكوركيس عواد، المجمع العلميّ العراقيّ، بغداد، د.ت.

٢٨. محمَّد، صباح محمود، مدينة الحِلَّة الكبرى: وظائفها وعلاقاتها الإقليميَّة، ط١، بغداد، ١٩٧٤.

٢٩. المقدسيّ، شمس الدين أبو عبد الله محمَّد بن أحمد (ت ٣٨٧هـ/ ٩٩٧م)، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، بريل، ١٩٠٦.

٣٠. ونَّاس، إيمان عبيد، الصلات الثقافية بين الحِلَّة ومدن الشرق الإسلاميّ من خلال الرحلات العلميَّة من القرن السابع حتَّى نهاية القرن التاسع الهجريَّين، رسالة ماجستير غير منشورة مقدَّمة إلى مجلس كليَّة التربية، جامعة بابل، ٢٠٠٧.